الباب الثالث

تقدير عام للترجمة فى ذلك العصر

١ — أغراض الترجمة .
٢ — عن أى اللغات وإلى أى اللغات .
٣ — طريقة الترجمة .
٤ — المصطلحات .
٥ — أسلوب الترجمة .
٦ — أثر الترجمة فى اللغة العربية .
٧ — أثرها فى المجتمع المصرى .

والآن ، وقد انتهينا من التأريخ للترجمة ، وأدواتها ، وما يتصل بها ، يحق لنا أن نلقى على هذه الحركة المباركة نظرة عامة شاملة ، لنقدرها حق قدرها ونتعرف على أغراضها المختلفة ، ونتقد طريقتها وأسلوبها ونبين أثرها فى تاريخ اللغة العربية ، والمجتمع المصرى .

١ — أغراض الترجمة :

(ا) ظهر لنا من الفصول السابقة أن محمد على كان يتجه فى سياسته الاصلاحية إلى النقل عن الغرب ولهذا يمكن أن نقول أن الغرض الأول والأساسى للترجمة فى ذلك العصر كان يرمى إلى نقل ما عند الغرب والغربيين من علم جديد ، ومن نظم وقوانين جديدة فى الجيش والأسطول . والمدارس ، والمستشفيات والإدارة الحكومية الخ .

(ب) أما الغرض الثانى فهو نقل العلوم الحديثة المختلفة إلى اللغتين العربية والتركية ، ليسهل على الطلاب والمدرسين استعمالها ودرسها ، وتدريسها فى المدارس الحديثة .

(حـ) وهناك كتب كثيرة ترجمت تحقيقاً لرغبة محمد على باشا ، أو لرغبة ابنه ابراهيم باشا فى بعض الأحيان ، وهذه فى الغالب إما كتب تبحث فى فن الحكم . ونظمه ، وسياسته ككتاب الأمير لمكيافيللى أو مقدمة ابن خلدون ، وإما كتب فى التاريخ ، وخاصة ما تناول منها سير وتراجم العظماء والمصلحين ، كالسيرة النبوية ، وتاريخ الاسكندر ونابليون وكاترين . وبطرس الأكبر ، وإما كتب فيها تعريف بالدول الأوربية الكبيرة ، كتاريخ إيطاليا . ورحلة رفاعة ، وتاريخ فرنسا . الخ . أما الكتب التى كان يشير بترجمتها ابراهيم باشا ، فكانت فى الغالب كتباً حربية ، كوصايا فريدريك الأكبر لضباطه ، أو الكتب التعليمية لفريق الجيش المختلفة .

(د) وكانت بعض الكتب تترجم خصيصاً للمكتب العالى ، حيث تستعمل لتعليم أولاد محمد على وأحفاده ، فقد ذكر مثلا فى مقدمة كتاب « إفاضة الاذهان فى رياضة الصبيان » أنه ترجم « برسم حضرة أنجال الخديو الأعظم . وحفدة الداورى الأكرم . وليشتغل به تلاميذ المكتب العالى » .

(هـ) ولم نلاحظ أن هناك كتباً ترجمت لتحقيق المثل الأعلى لمثل هذه الحركة — وهو نشر الثقافة العامة بين الشعب — ، وإن كنا لا ننكر أن محمد على خطا مرة خطوة نحو تحقيق هذا الغرض ، فأمر بتأليف وترجمة كتابين لنشر الثقافة الطبية بين عامة الشعب ، وهما : « كنوز الصحة ويواقيت المنحة » و « الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال » ، غير أنه لم يتبع هذه الخطوة بخطوات أخر ، أما المعهد الذى سعى لتحقيق هذا الغرض وكان يقدر له النجاح لو طال به العمر ، فهو مدرسة الألسن ، وسنفصل الكلام عن جهد هذه المدرسة فى هذه الناحية عند كلامنا عن أثر الترجمة فى المجتمع المصرى .

٢ — عن أى اللغات وإلى أى اللغات :

كذلك نلاحظ أن حركة الترجمة فى عصر محمد على كانت حركة واسعة شاملة ، فلم تقتصر على الترجمة عن اللغات الأوربية ، بل شملت الترجمة عن كل اللغات الأوربية والشرقية الحية واليها ، فترجمت كتب عن الفرنسية ، أو الإيطالية ، أو عن ترجمات فرنسية عن الإيطالية والانجليزية ، أو عن ترجمات إيطالية عن الفرنسية ، إلى اللغتين العربية والتركية[٢] .

وترجمت كتب عن العربية إلى التركية ، أو عن التركية إلى العربية .

وترجمت كتب عن الفارسية إلى التركية ، وترجم كتاب واحد — وهو كلستان سعدى — عن الفارسية إلى العربية[٣] .

وقام بالترجمة عن العربية إلى اللغات الأوربية جماعة من المستشرقين الذين عاشوا فى مصر فى ذلك الوقت ، فقام « الدكتور برون[٣] مثلا بترجمة كتب كثيرة فى الأدب والتاريخ عن العربية إلى الفرنسية ، كما قام « مسترلين » بترجمة القاموس المحيط إلى اللغة الانجليزية .

وهناك محاولة مصرية وحيدة للترجمة فى هذه الناحية ، فقد أشار محمد على مرة بتصنيف كتاب رسمى عن جهوده الاصلاحية أسماه « روضة العمران[٤] » ثم كلف بعض مترجميه وهم « : حكاكيان أفندى وارتين أفندى ، ويوسف أفندى ، واسطفان أفندى ، وكانى بك ، ورفاعة بك[٥] بترجمته عن العربية إلى الفرنسية ، ليكون وسيلة للدعاية له ولجهوده فى الخارج ، غير أننى لم أوفق ، — رغم البحث الطويل — للعثور على ما يثبت وجود هذا الكتاب — مخطوطا أو مطبوعا — بالعربية أو بالفرنسية .

٣ — طريقة الترجمة :

شهد العالم الاسلامى ، منذ بدء الإسلام حتى الآن ، حركتين للترجمة ، : كانت الأولى فى عهد الدولة العباسية ، وخاصة فى عصرى الرشيد والمأمون ، وبدأت الثانية فى عصر محمد على ، وقد عانى المترجمون فى العهدين كثيراً من صعوبات الترجمة وخاصة عند نقل المصطلحات العلمية التى لا مرادف لها فى اللغة العربية

أما المترجمون فى العصر العباسى ، فقد كان لهم فى النقل — كما يقول الصلاح الصفدى — طريقان : « أحدهما هو أن ينظر إلى كلمة مفردة من الكلمات الأعجمية ، وما تدل عليه من المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك ، حتى يأتى على جملة ما يريد تعريبه ، وهذه الطريقة رديئة لوجهين ، أحدهما أنه لا يوجد فى الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات الأعجمية ، ولهذا يقع فى خلال هذا النقل كثير من الألفاظ

(١) انظر الملحق ١ و ٢ .
(٢) انظر الكلام عن هذه الترجمة فى فصل المترجمين .
(٣) انظر بيانا مفصلا عن هذه الكتب فى مقالنا السابق الذكر « دكتور برون والشيخان الطنطاوى والتونسى » .
(٤) انظر الملحق رقم ٣ .
(٥) تقويم النيل ، ج ٣ ، ص ٤٥١ .

الأعجمية على حالها ، والثانى أن خواص هذا التركيب ، والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة لأخرى دائماً ، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات ، وهى كثيرة فى جميع اللغات .

والطريق الثانى فى الترجمة هو أن يأتى بالجملة فيحصل معناها فى ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها ، وهذا الطريق أجود» [1] .

هاتان هما الطريقتان اللتان اتبعتا فى العصر العباسى ، وهما طريقتان اجتهاديتان كان الباعث عليهما أن الترجمة فى ذلك العصر كانت ترجمة فردية . حقيقة أن الترجمة فى العصر العباسى — كانت مثلها فى عصر محمد على — ترجمة رسمية ، يوعز بها ، ويرعاها ويشجعها الحكومة والحكام ، غير أن الخليفة فى العصر الأول كان يوعز إلى المترجمين بالترجمة ، فيبذل كل منهم جهده وحده ، ويتصرف فى النقل حسب اجتهاده .

أما الترجمة فى عصر محمد على فكانت تقوم بها هيئات متعددة ، ولهذا نراها أحيطت بالضمانات الكافية والممكنة لتخرج سليمة ، دقيقة متقنة بقدر الإمكان .

بدأ الترجمة فى عصر محمد على جماعة السوريين ، وكان أولهم الأب رفائيل ، وقد ترك وشأنه فى الترجمة ، فقد كانت الحركة فى أول خطواتها ، ولهذا خرجت ترجماته رديئة ضعيفة الأسلوب ، غير واضحة ولا مفهومة ، فلما ألحق نفر آخرون من السوريين بمدرسة الطب ، أحست الحكومة فيهم هذا الضعف فى اللغة العربية فبدأت بوضع تقليد جديد ، وهو إشراك جماعة من شيوخ الأزهر معهم فى النقل لتخير الألفاظ والمصطلحات العلمية العربيـــة ، أو لاشتقاق ونحت ألفاظ ومصطلحات جديدة ، ثم لتصحيح الأسلوب وصياغته صياغة عربية صحيحة .

ولهذا لم يكن المترجم ينفرد بالترجمة وحده ، ثم يقدم الترجمة للشيخ المصحح ليقوم بتصحيحها وحده ، بل كان الرجلان يجلسان معاً ، فيمسك المترجم بكتابه ، والشيخ بدفتره ، ويبدأ الأول فى الترجمة جملة جملة ، ثم يمليها على رفيقه ، وهما فى أثناء ذلك يتشاوران ، ويراجعان الأصل ، أو الكتب العربية القديمة ، أو مابين أيديهما من قواميس ومعاجم ، إلى أن يتفقا على الصورة النهائية . يشير إلى هذا التعاون والاشتراك فى العمل الشيوخ المصححون فى مقدمات الكتب المترجمة ، فهذا الشيخ مصطفى كساب يقول فى مقدمة كتاب « نزهة الأنام فى التشريح العام » : « وترجمه من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية المترجم الحاذق الخواجة يوسف فرعون . مع مصحح مسائله ، ومنقح دلائله . . مصطفى حسن كساب » ، ويقول أيضاً فى مقدمة كتاب « منتهى البراح فى علم الجراح » : « ترجمه يوسف فرعون مع مرتب مبانيه ، ومهذب معانيه مصطفى كساب . . » ، وقال الشيخ محمد الهراوى فى مقدمة كتاب « منتهى الأغراض فى علم الأمراض » الذى ترجمه

---

(١) الدكتور أحمد عيسى بك ، التهذيب فى أصول التعريب ، ص ١١٣ (نقلا عن الصلاح الصفدى) .

يوحنا عنحوري : « وكان ممن استملى منه نحو نصف هذا الكتاب أخي ووحيدي أحمد صويبع الرشيدي، ولكون الكتاب المذكور نقل للطليانية ، وكان يفسر بها حين قراءة المعلم للدرس ، وخفت من أن يكون قد وقع في شيء منه اللبس ، تصفحته ثانية مع على أفندي هبة على أصله المطبوع بالفرنساوية » ، ثم يقول في خاتمة الكتاب : «لذا تعبت في تحريره عند الجمع والطبع غاية التعب ، واستهونت ماحل بي حينذاك من دوام السهر والوصب ، حتى صغته صياغة التآليف العربية في انسجام المعاني ، وتناسب الكلمات ، بعد أن بذلت الجهد في تهذيب المباني وتناسق العبارات . حتى صار لا يرى عليه غبار الترجمة ، ولا ما تعرف به من غبار اللعثمة» .

وقال نفس الشيخ في مقدمته لكتاب «المنحة في سياسة حفظ الصحة» : « فجمع الخواجا برنار ، هذا الكتاب من مجلدات كبار ، وترجمه من الفرنساوي للعربي بالكتابة والمقال المترجم الحلبي جورجي فيدال وكنت مقيداً لتصليح ماترجم ترجمة لفظية ، وتوقيعه مواقع عبارات عربية ، مع إبقاء أسلوبه لمساق الكلام على ماهو عليه ، واصطلاحهم في كثرة التقسيمات وتطويل العبارات على ما مالوا إليه . . غير أني بذلت في أن تستفاد المعاني من المباني غاية الجهد ، وحفظت أن لا أكتب شيئاً إلا بعد معرفتي إياه » ، ثم قال في خاتمته أنه رجع « على يد مصحح كله عند الترجمة . محرر حله لدى القراءة والمقابلة . مؤاخيه حال القراءة والجمع ، موافيه عند التمثيل والطبع . محمد الهراوي » .

وضع هذا التقليد خصيصا للمترجمين من السوريين . فلما خرجت المدارس والبعثات خريجيها من المصريين ، وبدأوا يشاركون في حركة الترجمة ، لم يلغ هذا التقليد ، بل أبقى عليه ، فقد كانت حكومة محمد علي — وهذه الكتب المترجمة جهد من جهودها — حريصة على أن تظهر للقارئين أقرب ما تكون إلى الصحة موضوعا وأسلوبا ، وكان معظم خريجي المدارس والبعثات من خريجي مدرستي بولاق وقصر العيني ، أو من تلاميذ المكاتب الاقليمية ، ولهذا كانت ثقافتهم في اللغة العربية ضعيفة محدودة ، فكان من الضروري أن يعينهم شيوخ الأزهر على أداء مهمتهم ، وقد فعلوا . جاء في مقدمة كتاب « اسعاف المرضى من علم منافع الأعضاء » أن مترجمه على افندي هبه ، كان يمليه على الشيخ محمد محرم أحد المصححين بمدرسة أبي زعبل » ، وذكر في مقدمة « نبذ كلوت بك » أنه قام بترجمتها ، ابراهيم النبراوي حكيم أول ابن عرب باملائه للشيخ محمد محرم أحد المصححين قبل الطبع ، وقال الشيخ مصطفى كساب في مقدمة كتاب « الطب العملي » : « وترجمه . . . محمد افندي عبد الفتاح . . . وقد استملیت منه هذا الكتاب ، وصححته بأعذب خطاب » ، وقد اتبع الشيخ محمد عمر التونسي نفس الطريقة مع الدكتور «برون» أثناء ترجمته لكتابه الجواهر السنية . فقد قال في مقدمته : « على أن جل هذا الكتاب كان أملى عليّ من قبل ذلك ، وصححت أكثره

بلا مشارك (يقصد من المصححين) . . وساعدنى فى ذلك معرفة مؤلفه باللغة العربية ، لأنى قابلت كل مشكلة معه على أصوله الفرنساوية . . . .

غير أنا نلاحظ أن هذا التقليد لم يكن عاماً ، بل لقد أعفى منه خريجو المدارس والبعثات من الأزهريين، أعفى منه الشيخ رفاعة ، وأعفى منه الشيخان (ثم الدكتوران) أحمد حسن الرشيدى ، وحسين غانم الرشيدى، فقد كانا ممتازين فى معرفتهما للغة العربية ، بل لقد كانا مصححين فى مدرسة الطب قبل ايفادهما إلى فرنسا ضمن بعثة ١٨٣٢ الطبية .

ولم يكتف القائمون على حركة الترجمة فى ذلك العصر بهذا التقليد ، بل كانوا يعهدون ببعض الكتب بعد ترجمتها وتصحيحها إلى لجنة أخرى من مترجم مصحح آخرين لمراجعتها على الأصل ، وكانت بعض الكتب تراجعها لجنتان أو ثلاث الواحدة بعد الأخرى ، حدث هذا فى الغالب للكتب التى ترجمها يوحنا عنحورى [1] ، لأن هذا المترجم كان يتقن اللغة الايطالية دون الفرنسية ، فكانت الكتب تترجم له عن الفرنسية إلى الايطالية ، ثم يقوم هو بترجمتها إلى العربية . فإذا راجعها معه المصحح ، أعطيت الترجمة للجنة أخرى لمراجعتها على النص الأصلى الفرنسى .

وحدث هـذا الإجراء أيضاً فى بعض كتب الطب البيطرى ، والكتب الرياضية ، فقد ترجم فرعون كتاب « التوضيع لألفاظ التشريح » وصححه الشيخ مصطفى كساب ، ثم صدر أمر من ديوان الجهادية بأن تكون لجنة ثانية من رفاعة افندى والبكباشى هرقل لمراجعته ، فبادرا بالامتثال . وقابلاه مقابلة ليس لها مثال ، مع امعان النظر ، وإيضاح ما خفى واستتر ، وكذلك كتاب « اللآلىء البهية فى الهندسة الوصفية » ترجمه ابراهيم رمضان افندى ، ثم عهد به إلى حسن الجبيلى افندى ، فقابله على أصله الفرنساوى .. وأطلق عنان قلمه فيه وصححه ، وأمعن نظره فى ترجمته وأصلحه ، ثم أعطاه للشيخ ابراهيم الدسوقى فحرره وصححه تصحيحاً ثانياً . . الخ .. الخ .

كذلك نلاحظ أن المبدإ العام لم يتجه فى هذه الحركة إلى التخصص فى الترجمة ، فقد رأينا طبيباً يترجم فى الجغرافيا ، ومبعوثاً للتخصص فى صناعة الحرير يترجم كتاباً فى التاريخ ، ورأينا رفاعة يترجم فى كل علم وفن ، ولهذا نلاحظ أنه أخذ تلاميذه فى مدرسة الألسن بنفس الطريقة ، فكان المترجم ينتهى من ترجمة كتاب فى التاريخ أو الجغرافيا ، فيعهد إليه بترجمة كتاب آخر فى الكيمياء أو النبات ، أو الهندسة ، أو أو الرحلات . . . الخ .

غير أنا نلاحظ أن الحركة كانت تتجه فى أواخر العهد نحو التخصص، فالذين عينوا فى مدرسة الطب من خريجى البعثات تخصصوا فى ترجمة العلوم الطبية دون غيرها ، والذين عينوا فى مدرسة المهندسخانة تخصصوا

---

(١) راجع مثلا مقدمة كتاب « اسعاف المرضى من علم مناهم الأعضاء » .

فى ترجمة العلوم الرياضية ، بل إنا لنلاحظ أن خريجى الألسن كانوا فى طريقهم إلى انتهاج هذا النهج ، فأبو السعود وخليفه محمود كادا — فى آخر العهد — يتخصصان فى ترجمة الكتب التاريخية ، وصالح مجدى فى ترجمة الكتب الهندسية والحربية ، ومحمد الشيمى فى ترجمه الكتب الرياضية . . وهكذا ، وفى رأيى أنه لو كان قد امتد بالمدرسة العمر لانتهت إلى التخصص التام .

كذلك لم يكن نظام المترجم الواحد للكتاب الواحد عاماً فى عصر محمد على ، بل نستطيع أن نقرر أن هذا النظام لم يتبع عادة إلا فى مدرستى الطب البشرى والبيطرى ، أما فى مدرسة الهندسة فقد اتبع هذا النظام فى بعض الكتب ، ولم يتبع فى البعض الآخر ، فرأينا كتاب « الروضة الزهرية فى الهندسة الوصفية » يشترك فى ترجمته ابراهيم رمضان ومنصور عزمى ، وكتاب « رمز السر المصون فى تطبيق الهندسة على الفنون » يشترك فى ترجمته عيسوى زهران ، وصالح مجدى ، ومحمد الخلوانى الخ ، وكان يتبع هذا النظام عند ترجمة بعض الكتب التى يأمر محمد على بترجمتها ، وذلك رغبة فى انجازها بسرعة ، فقد أصدر أمره مرة بترجمة كتاب « نظامات وترقيات العساكر » وأن يجمع « التراجمة » ويحمل حكمة الكتاب ويعطى لكل مترجم « كراس منه لسهولة ترجمته فى أقرب وقت » وذلك « لكون ترجمة هذا الكتاب من الأمور المهمة المستعجلة » (١) .

وقد أخذت مدرسة الألسن بهذا النظام أيضاً فى معظم الأحيان ، فكان يشترك فى ترجمة الكتاب الواحد أكثر من مترجم ، وخاصة إذا كان كبير الحجم ، أو كثير الأجزاء فقد اشترك أربعة من تلاميذه فى ترجمة كتاب « تاريخ الدولة العربية » (٢) ، واشترك اثنا عشر مترجماً منهم فى ترجمة كتاب « رحلة انخرسيس جوان فى بلاد اليونان » (٣) .

هذا ولم يكن النص يترجم كاملا فى كل الأحيان . بل كان يخضع للأغراض العامة والخاصة للترجمة فى ذلك العصر ، فهناك كتب جمعت أجزاؤها من كتب كثيرة مختلفة ، وكتب تركت بعض فصولها ، وكتب أضيفت اليها أجزاء وفصول عن كتب أفرنجية ، وأحياناً من كتب عربية ، والأمثلة الآتية توضح ماتقول :

فالدكتور « برنار » المدرس بمدرسة الطب جمع كتاب « المنحة فى سياسة حفظ الصحة » من مجلدات كبار .

وعندما ترجم الدكتور أحمد حسن الرشيدى كتاب « ضياء النيرين فى مداواة العينين » . قال فى مقدمته : « وقد أضفت اليه نبذة من كتاب الحكيم « والير » النمساوى فى كيفية تحضير أدوية العين ، واستعمالها فى التداوى ، وزدت على ذلك جملة مستحضرات تستعمل هنا ومركبات من نحو أكحال ومراهم ، وبرودات

---

(١) تقويم النيل ؛ ج ٢ ، ص ١٣٤ . (٢) انظر الملحق رقم ٤ .

وقطرات التقطتها من المؤلفات الجليلة ، ليكون المرتاد جامعاً لكل فضيلة » .

وقال الدكتور « برون » فى مقدمة كتابه « الأزهار البديعة فى علم الطبيعة » : « واقتطفت من روضة كتب هذا الفن كل زهرة بديعة ، وجمعت هذا الكتاب من أحاسن الفن المذكور » .

وذكر الشيخ الهراوى فى مقدمة كتاب « القول الصريح فى علم التشريح » تأليف « بايل » وترجمة عنحورى ، إنه « ترجم مع ماضمه اليه كلوت بك فى أثناء التعليم من زيادات احتاج المقام اليها ، وذيل بكراسة فى تعليم صناعة التشريح ، وتصوير الأجسام » .

أما كتاب « منتهى الأغراض فى علم الأمراض » تأليف « بروسيه وسانسون » وترجمة عنحورى فقد نسخه الدكتور « ديفينو » بخطه ، ولم يتصرف فيه كما قال : « بغير التقديم والتأخير فى مباحث بعض الأبواب ، وحذف بعض عبارات من الأصل وقع بها فيه الإسهاب ، وأضاف له مبحث مشاهدات الأمراض ، وقاعدة الاستقصا من فتح الموتى ليعلم ماحل بها من الأعراض ، وذيله بمبحث الديدان المتولدة فى باطن الأعضاء حتى لا يبقى محتاجاً إلى ماتتشوف اليه النفس ، أو يوجبها الإغضاء » .

وهكذا فعل رفاعة ببعض كتبه ، فقد جمع فصول كتابه « التعريبات الشافية لمريدى الجغرافيا » من كتب فرنسية مختلفة ، فخرج بعد ترجمته « متضمناً لخلاصة كتب (هذا العلم) المطولة » .

وعند ماترجم كتابه « فلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » وهو يطلب العلم فى باريس قال فى مقدمته « ولما كان هذا الكتاب المذكور غير مقصور على مجرد نقل العوائد بل هو مشتمل على استحسان واستقباح بعضها أشار على مدير التعليم المذكور (مسيو جومار) أن أحذف مايذكره مؤلف الكتاب من الحط والتشنيع على بعض العوائد الإسلامية ، أو مما لاثمرة لذكره فى هذا الكتاب » .

وعند مابدأ جهوده فى مدرسة الألسن أراد أن يخرج مكتبة تاريخية تتحدث عن تاريخ العالم منذ أقدم عصوره إلى أحدثها ، وكان أول كتاب ترجم من هذه المجموعة كتاب « بداية القدماء وهداية الحكماء » وهو كتاب شامل لتاريخ الشعوب المختلفة فى العصور القديمة كاليونان والسوريان ، والبابليين والفرس ، وغيرهم ، وقد اشترك جماعة من تلاميذ الألسن فى ترجمته ، وقال رفاعة فى مقدمته « ولما كان المؤلف ناقصاً تاريخ الخليقة والعرب ، وكان فى كتاب عماد الدين أبى الفداء سلطان حماة مايفى بالأرب ، أضفته إلى الترجمة لكمال المطلوب وبلوغ المرغوب » .

٤ — المصطلحات :

كان أمر هذه المصطلحات فى الترجمة عن بعض اللغات الشرقية إلى البعض الآخر سهلا هيناً فقد كان عصر أخذ كل لغة من اللغات الثلاث عن مصطلحات اللغتين الأخريين قد انتهى منذ أمد طويل ، وكانت كل لغة منها قد هضمت ما اقتبسته من اللغتين الشقيقتين ، فأصبح مفهوم المعنى والمدلول كأنه من ألفاظها.

أما المشكلة كل المشكلة عند المترجمين فى عصر محمد على فقد كانت فى محاولاتهم نقل الألفاظ والمصطلحات العلمية الأوربية إلى اللغة العربية أو التركية .

ولو أن اللغة العربية كانت تكتب بحروف لاتينية . أو لو أن اللغات الأوربية كانت تكتب بحروف عربية لسهل العمل على المترجمين قليلا ، فان رسم اللفظ ـ الذى تصعب ترجمته من لغة إلى لغة أخرى تشبهها فى رسم الحروف ـ يسهل على القارىء قراءته قراءة صحيحة ، وقد يعينه على فهم معناه إذ كانت اللغتان متشابهتين أو متقاربتين ، أو منحدرتين من أصل واحد ، ذكر هذه الحقيقة خليفة محمود فى مقدمة كتابه «تحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا» فقد ألف هذا الكتاب فى الأصل المؤرخ الانجليزى « روبرستون » ثم ترجمه خليفه أفندى عن ترجمة فرنسية ، ووصف فى أوله مايلاقيه هو وغيره من المترجمين من صعاب أثناء الترجمة ، ثم شرح الفكرة السابقة بقوله : « إن فن الترجمة جبل صعب المرتقى . . . وتاريخ الأمبراطور شارلكان من أصعب ما نظم فى السلوك من تواريخ الدول والملوك . . . لأن من ترجموه إلى اللغات المختلفة كانوا أبطالا شهد لهم بالذكاء والألمعية . . . ومع ذلك فقد استصعبوه ، وبالدقة وصفوه ، مع أن لغاتهم مشابهة لبعضها ، والحروف واحدة ، فاذا عثر من يترجم من الانجليزية مثلا إلى الفرنساوية على كلمة لم يجد لها مقابلا فى لغته ، يكتبها على أصلها فى ترجمته ، وتقرأ وتفهم من غير صعوبة . . »

أدرك المترجمون هذه الصعوبة الناتجة عن اختلاف اللغة العربية عن اللغات الأوروبية فى أصول الكلمات واشتقاقاتها ، وفى رسم الحروف ، وكانوا يستطيعون أن يتغلبوا عليها لو أنهم رسموا الألفاظ الجديدة بالحروف العربية وأثبتوها كما هى بحروفها اللاتينية إلى جانب الرسم العربى ، كما نفعل نحن الآن فى كثير من الأحيان ، ولكنهم لم يفعلوا . ولست أدرى السر فى إحجامهم عن استعمال هذه الطريقة مع أن مطبعة بولاق منذ أنشئت ، بل ومعظم المطابع الأخرى ـ وخاصة مطبعة سراى رأس التين بالاسكندرية ـ كانت بها مجموعات للحروف اللاتينية ، بأشكال وأحجام مختلفة .

أهمل المترجمون إذن الحروف اللاتينية تماما ، ثم حاولوا مستعينين بما وصلت اليه أيديهم من قواميس ومعاجم ، وبجهود المحررين والمصححين من المشايخ البحث فى كتب الطب ، والكيمياء ، والنبات العربية القديمة على ألفاظ ومصطلحات تقابل مايعثرون عليه من ألفاظ ومصطلحات فى المؤلفات الأوروبية ، واستطاعوا بهذه الطريقة أن يحيوا ألفاظاً علمية عربية كثيرة ، غير أن العالم الأوروبى فى أوائل القرن التاسع عشر كان قد أوجد علوما جديدة ، وأحدث اختراعات ، وعرف نظما وأوضاعاً سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة لم يكن للعرب القدامى بها عهد .

وهذا العالم الاوربى قد اتصلت الأسباب بينه وبين مصر والمصريين بعد قطيعة طالت أمدها ، ولهذا

العالم الأوربي تاريخ وجغرافيا مملوءتان بالأسماء التي لم تعرفها ولم تذكرها الكتب العربية القديمة ، بل هناك عالم جديد قد اكتشف وعالم قديم كان في سبيله إلى الاكتشاف . وعلماء أوربا قد وضعوا التصانيف الكثيرة في دراسة هذه العوالم جميعاً ، وبرنامج الترجمة في عصر محمد علي كان يرمي إلى نقل كتب كثيرة لتعريف بهذه العوالم ، فكيف إذن يستطيع المترجمون التغلب على هذه الصعوبة ؟

لقد حاولوا ، وبذلوا الجهد ، وبدأوا يصطنعون طرقاً تمهد لهم السبيل ، واللغة كما نعرف كائن حي ، ينمو ويتطور ، فإذا كنا قد انتهينا إلى صياغة ألفاظ ومصطلحات علمية كثيرة تقابل الألفاظ والمصطلحات العلمية الأوربية الحديثة ، فالفضل الأكبر يرجع لجهود هؤلاء الرواد ، ولنتتبع الآن الطرق التي اصطنعوها لأنفسهم .

لقد حاولوا أولا إيجاد ألفاظ ومصطلحات عربية تقابل الألفاظ والمصطلحات الأوربية ، بل إننا نلاحظ أن هؤلاء المترجمين لم يكونوا جامدين ولا متزمتين ، ولم يقيدوا أنفسهم بالألفاظ العربية دائماً . فكانوا إذا وجدوا أن اللفظ العربي قد أهمله المتكلمون بالعربية أنفسهم ، وبدأوا يستعملون اللفظ الأوربي ، أو لفظاً قريباً منه ، فضلوا اللفظ الجديد على اللفظ القديم ، يقول رفاعة في مقدمة « التعريبات الشافية » : « واعلم أنه قد تمر عليك أسماء بلدان أبقيناها على أسمائها الفرنساوية ، إما لاشتهارها في هذا العهد بتلك الأسماء ، كجزيرة « سرنديب » فإنها الآن تسمى جزيرة « سيلان » ، واشتهرت عند عامة الناس بهذا الاسم ، وجزيرة « صقلية » فإنها اشتهرت الآن باسم جزيرة « سيسيليا » ، وجزيرة « أقرطيش » فإنها يقال لها الآن جزيرة « كريد » ؛ وإما لعدم الوقوف على الاسم العربي ، ولعل هذا السبب الأخير هو الموجب لما فعله المرحوم الحاج خليفة افندي صاحب كتاب الجغرافيا المطبوع في مدينة اسلامبول من إبقائه أسماء أماكن على لفظها الفرنساوي ، لعدم اطلاعه على أسمائها العربية والتركية » .

هذه كانت خطوتهم الأولى ، وكانوا إذا عجزوا عن العثور على لفظ عربي يؤدي المعنى المطلوب ، أو يقابل اللفظ الأوربي ، نقلوا اللفظ أو المصطلح الجديد كما هو ، ورسموه بحروف عربية ؛ وإذ كانت الحروف العربية في مطابع ذلك العصر خالية من الشكل تماماً ، فقد لجأوا للطريقة القديمة ، فبينوا بالكلمات طريقة نطق هذه الألفاظ ، ثم أشفعوا هذا كله بتفسير للمصطلح الجديد ، أو تعريف له ، في جملة أو جمل كثيرة ؛ يقول رفاعة في مقدمة كتاب « المعادن النافعة » : « وقد فسرت مفرداته على حسب ما ظهر لي بالفحص التام ، وما تعاصى منها حفظت لفظه ، ورسمته كما يمكن كتابته به ، وربما أدخلته بعض تفسيرات لطيفة » ؛ ونستطيع بحق أن نقول أن رفاعة هو مبتدع هذه الطريقة وصاحبها ، فقد اتبعها في معظم كتبه التي ترجمها ، وعنه أيضا أخذها تلاميذه في مدرسة الألسن ، فهذا خليفة افندي محمود يقول في مقدمة كتاب « اتحاف الملوك الالبا » : « .. إن اللغة العربية بمعزل عن اللغات الأفرنجية ، فلزم لي معاناة أين ، ومكابدة

مشاق بين حين إلى حين ، لأجل أن آتى بمقابل ألفاظ يصعب وجود مقابل لها فى العربية ، يكون مطابقاً لمعناها ، ومؤديا لجميع مفادها ومغزاها ، حتى أنه ربما ورد على بعض ألفاظ لم أجد لها مقابلا بالكلية ، فيلفظها الأصلى ذكرتها ، وبجملة اعتراضية فسرتها . » ، ولنأت الآن ببعض الأمثلة التى توضح هذه الطريقة نقلناها عن بعض الكتب التى ترجمها رفاعة وتلاميذه .

١ — الانستتوت ، — بفتح الهمزة وسكون النون وكسر السين — أى مشورة العلوم وأكابرهم .

٢ — الاكتريستة ، بكسر الهمزة ، وسكون الكاف وكسر التاء والراء ، وكسر السين وفتح التاء — المساة الرسيس ، بفتح الراء المشددة وكسر السين ، التى هى خاصة الكهربا عند حكمها .

٣ — شمبرد وبير ، بفتح الشين وسكون الميم — يعنى ديوان « البير » بفتح الموحدة أى أهل المشورة الأولى .

٤ — ديوان رسل العالات ، وهذه هى ترجمة رفاعة للاصطلاح الفرنسى (Chmbre des députés.) ولهذا الاصطلاح عندنا فى مصر منذ عهد محمد على حتى اليوم تاريخ طويل ، فقد سمى هذه التسمية ، ثم أطلق عليه « مجلس شورى القوانين » ، ثم « الجمعية العمومية » ثم « الجمعية التشريعية » الخ إلى أن سميناه أخيراً بمجلس النواب ، كما سمينا « الشمبرد وبير » بمجلس الشيوخ .

٩ — الجرنالات ، جمع جرنال ، وهو يجمع فى اللغه الفرنساوية على « جورنو » ، وهى ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ماوصل إليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنتشر فى المدينة ، وتباع لسائر الناس ، وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوى ، وهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول مايخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ماتراه حسناً أو قبيحاً ، وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة فلها حرية تامة مالم تضر فى ذلك ، فإنه يحكم عليها وتطلب قدام القاضى ، « والجورنو » عصب ، فكل جماعة لها فى مذهبها مذهب كل يوم يقويه ويحاميه ويؤيده ، ولا يوجد فى الدنيا أكذب من الجرنالات أبداً خصوصا عند الفرنسيس .

٦ — التلغراف — يعنى إشارة الأخبار . الخ . . الخ . .

٥ — أسلوب الترجمة :

أخص مايمتاز به أسلوب الكتب المترجمة أنه أسلوب علمى خالص ، لأن الكتب التى ترجمت فى عصر محمد على كانت كلها — إذا استثنينا كلستان سعدى — كتباً علمية ، غير أنا نلاحظ أن المترجمين قد ساروا — رغم مافى ترجماتهم من عيوب — باللغة العربية خطوة إلى الأمام ، فقد تخلصوا فى كتبهم المترجمة من قيود المحسنات البديعية — وخاصة السجع — التى ظلت مسيطرة على الكتب العربية قروناً طويلة ، وكان

هذا التخلص شيئاً طبيعياً ، إذا لم يكن من الممكن البتة أن يلتزم أى مترجم السجع فى كتاب بأكمله ، يقيده فيه النص الأجنبى الذى ينقل عنه ، أو المصطلحات والتعريفات العلمية التى يترجمها ، والتى كثيراً مايحار فى ترجمتها ، ولهذا لاحظنا أن معظم المترجمين فى ذلك العصر ، إن لم يكن كلهم ، قد قيدوا أنفسهم بالنص تقييداً أضر بالأسلوب وبالمعنى فى كثير من الأحيان ، ومع هذا فإن الأساليب الأوربية لم تخل تماماً من بعض المحسنات ، كالاستعارة أو التورية ، أو التشبيه ، فلكل لغة محسناتها . وهنا أباح المترجمون لأنفسهم فى بعض الأحيان التصرف فى نقل هذه المحسنات ، وكثيراً ما كانوا يعربونها ، أى يضعون مكانها استعارات وتشبيهات تتفق والذوق العربى ، وذلك إذا أيقنوا أن المحسنات الأوربية مما لايفهمه ، أو يعقله ، أو يهضمه القارىء العربى .

وقد تخيرت أن أنقل هنا بعض فقرات من كتاب « أتحاف الملوك الألبا » الذى ترجمه خليفة محمود ، فقد وضع فيها المترجم هذه المبادىء التى راعاها عند ترجمته لهذا الكتاب ، غير أن الباحث يستطيع — بالنظر فى معظم الكتب التى ترجمت فى ذلك العصر — أن يعتبرها مبادىء عامة كان يلتزمها غالبية المترجمين فى عملهم ، قال خليفة افندى : « قد حاولت مجاراة عبارات الأصل كل المحاولة ، وزاولتها كل المزاولة ، ولذا كانت بعض العبارات فى ترجمتى على نسق يبعد بعض الوجوه عن قالب الفصاحة العربية ، ويقرب من قالب اللغات الأعجمية ، لأن المترجم يلزمه أن يكون أسيرا للأصل فى تركيبه . ونظمه وترتيبه ، والفرع إن لم يقف أثر أصله قل أن نجح فى فعله ، وربما راعيت أدنى ملاءمة بين التشبيهات وأوجه الاستعارات ، ولكن عدلت عن كل تشبيه فى الأصل يكون أعجميا بحتاً ، فبدلت بعضاً ، وحسنت بعضا . . »[1] .

هذه هى المبادىء التى التزمها خليفة محمود فى ترجمته لهذا الكتاب ، غير أنه لم يلتزمها وحده ، بل يمكننا أن نعتبرها مبادىء عامة تنطبق على معظم ماترجم المترجمون فى عصر محمد على ، وقد رأيت أن اتخير بعض أمثلة من الكتب التى ترجمت فى ذلك العصر لمقارنتها بالأصل المنقول عنه ، ونقدها والحكم عليها تحت ضوء هذه المبادىء العامة .

وقد راعيت أن تكون هذه الأمثلة تختلف كل منها على الآخر فى كل شىء : فى اللغة التى ترجم عنها . وفى المترجم الذى ترجمه وفى الموضوع الذى ترجم فيه ، فالمثال الأول قطعة من كتاب الأمير لمكيافللى الذى ترجمه عن الإيطالية إلى العربية الأب رفايل زاخور ، وهو واحد من المترجمين السوريين ، والثانى قطعة من كتاب الجغرافيا العمومية لمالطبرون الذى ترجمه عن الفرنسية إلى العربية رفاعة الطهطاوى ، وهو واحد من خريجى البعثات ، والثالث قطعة من كتاب ، اتحاف الملوك الألبا فى تقدم الجمعيات فى أوروبا للمؤرخ الانجليزى « روبرتسون » ، وقد ترجمه عن ترجمة فرنسية للكتاب خليفة محمود وهو مترجم من خريجى الألسن .

(١) اتحاف الملوك الألبا ، ص ٨ — ٩

هذا ولم أوفق للعثور على النص الفرنسي للكتاب الأخير ، وهو الذى نقل عنه المترجم وإنما عثرت على النص الإنجليزى الأصلى ، فلم أر بأساً فى مقارنة الترجمة العربية به .

المثال الأول : قطعة من الفصل الأول من كتاب الأمير لمكيافللى Il Principe del Maciavelli ، وسنذكر هنا النص الايطالى وإلى جانبه الترجمة العربية التى قام بها الأب رفايل ، وإذ كانت هذه الترجمة ركيكة الأسلوب ، غامضة المعنى ، وكان قد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية مترجم مصرى آخر هو الأستاذ محمد لطفى جمعه بك . وذلك فى مفتتح القرن العشرين (١٩١٢) فقد رأينا أن ننقل نص ترجمته إلى جانب الأصل ونص ترجمة رفايل ، ليسهل علينا الحكم على الترجمة الأولى .

ترجمة الأب رفائيل	النص الإيطالى Testo del Machiavelli	ترجمة محمد لطفى جمعة
الرأس الأول : فى كم من أنواع الأميريات وبأيتا طرايق تحاز أى يحصل عليها . إن كل الأحكام ، وكل السيادات تلك التى قد ملكت وتملك سلطة على الناس ، كانت ولم تزل إما مشيخات وإما أميريات ، فالأميريات إما أنها مستورثة ، وهذه دم من سادها يكون قد استمر مدة مستطيلة أميرا ؛ وإما أنها مستجدة . ثم إن المستجدة إما أنها كلها جديدة كما كانت أميرية ميديولان (كذا) على الأمير فرنسيس سفورزا ، وإما أنها كأعضاء مضافة لحكم الوارث ما للأمير (كذا) الذى يحوزها ، كملكة نابولى لملك أسبانيا فان هذه سيادات هكذا مخافرة (كذا) أو معتادة أن تعيش تحت أحكام أمير ، أو أنها أميريات اعتادت أن تكون محررة وتحاز إما بقوة أسلحة آخرين أو بأسلحة ناسها خاصة أو بواسطة السعد أو بواسطة الفضل .	Tutti gli stati, tutti i dominii che hanno avuto ed hanno imperio sopra gli uomini, sono stati e sono o repubbliche o principati, I principati sono, o ereditori, dé quali il sangue del loro signore ne sia stato lungo tempo principe; o é sono nuovi' I nuovi, o sono nuovi tutti, come fu Milano a Francesco Sforza : o sono come membri aggiunti allo stato ereditario del principe che gli acquista, come è il regno di Napoli al re di Spagna. Sono questi domini cosi acquistati, o consueti a vivere sotto un principe, o usi ad essere liberi, ed acquistansi o con l'arme d'altri o con le proprie, o per fortuna o per virtu.	كانت الحكومات التى حكمت الأمم فى الأزمان الغابرة ، إحدى اثنتين ، إما جمهوريات عادلة وإما ملكيات معتدلة ، والملكية نوعان نوع تحكمه أسرة واحدة عريقة فى القدم يرث أفرادها الملك ، الواحد بعد الآخر ، ونوع حديث التأسيس ، وملوكه حديثو العهد بالسلطان ، ولذلك النوع الأخير صنفان صنف تكون الممالك فيه حديثة بالكلية كما كانت إمارة « ميلانو » فى عهد « فرانشسكو سفورزا » ، وصنف يضمه الأمير إلى ما ورثه عن آبائه وأجداده بحق الفتح ، مثل امارة « نابولى » التى ضمها ملك أسبانيا إلى أملاكه

على أن بعض الممالك التى تفتح وتلحق أهلها على أمرهم ، يكون قبل الفتح معتودا حكم أمير من الأمراء ، ويكون بعضها حرا مستقلا ووقوع تلك الامارات فى أيدى الفاتح يحدث إما بقوة الحرب ، وإما عفوا صفوا . |

والقارىء لترجمة رفايل يستطيع أن يدرك لأول وهلة ما تمتاز به من ركاكة . بل عجمة فى الأسلوب ، والسبب فى ذلك كما يتضح من مقارنتها بالأصل أنه تقيد بالمبدأ الأول من المبادىء العامة للترجمة فى ذلك

العصر ، وهو انتقيد التام بالأصل ، فرفاييل فى ترجمته لم يفعل أكثر من حذف كل لفظ إيطالى ، ووضع لفظ عربى مكانه ، وحتى الألفاظ العربية لم يحسن تخيرها ، فالأمارات عنده « أميريات » ، وجديدة أو حديثة عنده « مستجدة » إلخ . . ثم هو لم يراع بتاتا أن لكل لغة مميزاتها الخاصة فى وضع الألفاظ ، وتركيب الجمل وعلاقة كل لفظ بالآخر ، وكل جملة بالتى تليها ، حتى تتصل المعانى وتنسجم ؛ بل وضع الألفاظ العربية موضع الألفاظ الايطالية تماما ، فخرجت الترجمة — مع ركاكتها وعاميتها — غامضة غير واضحة ولا مفهومة [1] ، وإنى لأعتقد أن القارىء لا يستطيع — إن لم يكن تحت يده النص الأصلى أو الترجمة الحديثة — أن يفهم شيئا مما من ترجمة رفاييل ، وأنا لا أبالغ فى الحكم ، فهذه قطعة أخرى من كتاب ترجمه رفاييل ، وهو كتاب « قانون الصياغة » تأليف « ماكير » رأيت أن أنقلها وحدها دون ذكر للنص الفرنسى : « إن الحرير حال خروجه من على الشرنق له خشونة وبيوسة صادرة أم صادرتان له عن نوع صموغية خامية مغشاة به ذاتا ، ثم وكذلك له لون محمر بصفار ، وعلى حسب الاعتيادى غامق جدا أيضا ، وهذا نقوله قلما يكون عن (كذا) حرير بلادنا ، هذه ربما كلها خشونة الحرير هذه لا توافق قط مطلقا الأغلب أصناف الأقمشة المتجهز لنسجها ، ثم وموافقة لونه الذاتى لا تفيدا الألوان ربما جميعها تلك المقصود أخذها منه » .

فهل يستطيع القارىء أن يفهم شيئا من هذا الكلام ؟ ؟ ثم ما هذه التعابير الأعجمية العجيبة : « من على الشرنق » و « غامق جدا أيضا وهذا » و « لا توافق قط مطلقا » الخ . . الخ

ولكن لا يظنن أحد أن كل ماترجم المترجمون السوريون كان بهذه التفاهة والركاكة والغموض ، فإن الكتب التى ترجمها عنحورى وفيدال وسكاكينى فيما بعد تختلف كل الإختلاف عما ترجمه رفاييل ، والسبب فى هذا الاختلاف واضح . وذلك أن رفاييل كان أول من عهد إليه بالترجمة من السوريين ، وقد ترك وشأنه أثناء الترجمة ، فلما ألحق المترجمون الآخرون بمدرسة الطب رأى القائمون بالأمر أن يتفادوا هذه العيوب ، فوضعوا التقليد الصالح الذى ذكرناه من قبل وهو تعيين جماعة من شيوخ الأزهر لمراجعة وتصحيح وتحرير ما يترجم المترجمون السوريون .

فإذا كنا لم نفهم شيئا مما نقلناه عن ترجمات رفاييل ، وإذا كنا نستطيع أن نفهم الكثير مما ترجم خلفه من المترجمين السوريين ، بل ومن المترجمين المصريين ، فيجب أن نعترف بالفضل لأولئك المشايخ المصححين

المثال الثانى :

قطعة من المقالة التاسعة من الجزء الأول من كتاب « الجغرافيا العمومية » لمالطبرون الذى ترجمه رفاعة رافع الطهطاوى ، ومعها النص الفرنسى .

---

(١) أنظر نقد الآنسة « ماريا نالينو » لهذه الترجمة فى مجلة : Oriente Moderno, 1931, pp. 609—611.

(٢) قانون الصباغة ، ص ١٠ .

الترجمة العربية	النص الفرنسي
« أعلم أن قسم أفريقيا من مذ عصر « هيرودوط » هو الذى كشف به الأقدمون أقل مما كشفوا لغيره من البلاد ، وذلك لأن « هردوط » الذى كان سواحا ومؤرخا التقط من مدينة منف ببلاد مصر ، ومن مدينة القيروان بين العرب جميع الأخبار المعلومة لحكماء مصر ، ويونان القبين ببلاد أفريقيا ، وأما معارف القرطاجيين فلم تصله إلا مقطعة قطعة بعد قطعة فلهذا لم يمد نظره جهة منابع النيل إلا على حد ، وربما مد نظره كذلك أيضا جهة نهر النيجير (كذا) وجبل القمر المسمى جبل أطلس ، وأما خارج هذه الحدود فانه كان يقف عقله عن الحكم عليه بشيء . ومن هذا الزمن تغير حكم الاقليم المصرى ، وصار مملكة من ممالك اليونان ، فوجهت غزواته وانكشافاته جهة خليج العرب وبحر الهند ، وقد التقط « ايراطستينيس » من مدينة اسكندرية معارف محررة متعلقة بالتعريجات والاستطاقات الكثيرة الموجودة فى جريان نهر النيل ببلاد النوبة ، وقد عرف أوضح من تعريف هردوط النيل الحقيق الذى يجيء من الغرب ، وهو الذى يسمى الآن بالبحر الأبيض ، ثم نهر اسطابوس ، الذى هو نيل السودان ويسمى نهر « أبوى » ثم نهر اسطابوراس وهو المسمى الآن نهر تقازه » (١)	"De toutes les parties du Monde, l'Afrique est celle où les anciens ont fait le moins de découvertes depuis le siècle d'Hérodote. Ce voyageur historien avait recueilli à Memphis et à Cyrène les renseignements que possédaient les prêtres égyptiens et les Grecs établis en Afrique ; les connaissances des Carthaginois ne lui parvinrent que par fragments : ainsi ses regards pénétrants n'aperçurent que dans un lointain obscur les sources du Nil, le Niger peut-être et le mont Atlas ; au-delà de ces limites sa prudence suspend tout jugement. Depuis cette époque, l'ancienne Egypte, transformée en une monarchie Grecque, dirigeait ses conquêtes et ses decouvertes vers le golfe Arabique et la mer de l'Inde. Eratos thène avait recueilli à Alexandrie des renseignements trés exacts sur les grandes sinuosités que présente le cours du Nil dans la Nubie : il distingue plus clairement que ne l'afait Hérodote, le vrai Nil venant d'ouest, notre Bahr-el-Abiad, d'Astapus, qui est le Nil d'Abyssinie. le Bahr-el-Azrak ou l'Abava, et l'Astaboras, ou notre Tacazzé." (2.)

وهذه القطعه تمثل الخطوة الثانية من خطوات التطور الذى خضعت له الترجمة فى عصر محمد على ، فهى لواحد من خريجى البعثات ، بل هى للمضو الوحيد الذى تخصص فى الترجمة ، ومع هذا نلاحظ أن رفاعة كان يخضع للمبدأ العام الذى قررناه ، وهو التقيد بالنص الاجنبى تقيداً يخرج الترجمة وفيها شيء من العجمى ، حتى ليحس القارىء لأول لحظة أن ما يقرأ نص مترجم . والمترجم الماهر يشعر قارئه دائماً أن ما يقرأ نص عربى أصيل ، ونحن إذا طبقنا هذا المبدأ على هذه القطعة وجدناه صحيحاً إلى حد كبير ، أنظر كيف ترجم رفاعة هذه الجملة "Il distingue plus clairement que ne l'a fait Herodote, le vrai Nil." إنه لم يفعل أكثر من أن حذف كل كلمة فرنسية ، ووضع مكانها المعنى العربى الذى تخيره ، فأتت الترجمة كما يلى ، « قد عرف أوضح من تعريف هردوط النيل الحقيق ، وهو تعبير بعيد عن التعبير العربى

(١) الجغرافيا العمومية ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٢) Malte-Brun, Geographie Universelle, t.I, p. 83.

الصحيح ، وكان أجدر به — وهو العالم الأزهرى أن يقرب بين الفعل والمفعول ، ثم يضع الجملة العرضية فى الآخر ، فيقول « وقد عرف النيل الحقيق أوضح من تعريف هردوط » .

وحتى عندما كان رفاعة يبيح لنفسه التصرف فى أوضاع أجزاء الجملة الواحدة ، لم يستطع صياغتها فى أسلوب عربى مقبول ، فهو مثلا قد قدم بعض ألفاظ الجملة الأولى ، وأخر البعض الآخر ، ثم أخرجها فى النهاية هذا الاخراج : « أن قسم أفريقيا من منذ عصر هردوط هو الذى كشف به الاقدمون أقل مما كشفوا لغيره من البلاد » ، وكان أقرب إلى الصحة أن يقول مثلا : « لقد كان ما كشفه القدماء من قارة أفريقيا أقل مما كشفوه من أجزاء العالم الأخرى » .

كذلك نلاحظ فى ترجمة رفاعة أموراً أخرى ، منها ، : أنه كان متأثرا تأثرا كبيرا بثقافته الازهرية وباسلوب الكتب العربية القديمة التى قرأها ، فهو يبدأ كل فصل بلفظى « أعلم أنه » مع عدم وجود هذين اللفظين فى النص الافرنجى . ومع أنه لا توجد ضرورة ملحة تلزمه باستعمالها ، ومن أمثلة هذا التأثر أيضاً أنه يسبق كل مصطلح دال على قطر أو إقليم جغرافى باللفظ العربى التقليدى « بلاد » أو « بر » فهو يترجم « l'Egypte » بلاد مصر ، و « l'Afrique » ببلاد أفريقيا ، ويقول « بر المغرب » وهكذا .

ورفاعة فى هذه الترجمة لم يدقق التدقيق الكافى عند تخير الألفاظ العربية الصحيحة فتراه يستعمل كلمة « انكشافات » بدل « كشوف » ، و « جريان » بدل « مجرى » ، و « سواح » بدلا من « رحالة أو سائح » ، و « الاقدمون » مكان « القدماء أو القدامى » .

وهو أيضاً لم يعن العناية الكافية بتخير الالفاظ العربية التى تؤدى المعنى الصحيح لمايقابلها من الالفاظ الفرنسية ، فتراه يترجم « Cyrène » بمدينة القيروان والصحيح أن يترجمها « برقة » أو يرسمها كما تنطق فيقول « قيرين » أو (قورين) كما فعل أحمد زكى باشا[1] فيما بعد ، وذلك لأن مدينة القيروان لم تبن إلا فى سنة ٥٠ هـ وهى إلى هذا بعيدة الموقع عن « Cyrène » التى يقصدها المؤلف ، وشبيه بهذا أنه ترجم « le Nil d'Abyssinie » بنيل السودان ، بدلا من « نيل الحبشة » كما أنه ترجم (prêtres) إلى حكماء وكان يصح أن يقول (كهنة) أو (قسس) ، والفعل (avait receuilli) إلى (التقط) والصحيح (جمع) .

وفى أحيان أخرى كان رفاعة يترك بعض الالفاظ دون ترجمة ، ولا أدرى أكان ذلك سهوا أو عن عمد ، فهو قد ترجم (un lointain obscur) إلى « إلا على بعد » . وهذا التعبير إن أدى معنى (un liontain) فانه لا يحمل البتة ما يشير إلى معنى : obscur » .

كذلك قد أهمل فى الجملة الأخيرة لفظ (le Bahr al-Azrak) فلم يشر إليه فى الترجمة العربية .

---

(١) أنظر احمد زكى باشا ، قاموس الجغرافيا القديمة ، ص ٦٢ ، وعلى بهجت بك ، قاموس الأمكنة والبقاع ، ص ٢٢٠ .

وكان رفاعة يخطىء أحياناً فى فهم بعض الجمل ، ومثال ذلك أنه فى الجملة الآتية :

"Ainsi ses regards pénétrants n'aperçurent que dans un lointain obscur Les sources du Nil, le Niger peut-être et le mont Atlas."

قد تنى توجيه النظر إلى منابع النيل ، ولكنه أثبته بالنسبة للنيجر وجبل أطلس فقال (فلهذا لم يمد نظره جهة منابع النيل إلا على بعد ، وربما مد نظره كذلك أيضاً جهة نهر النيجر ، وجبل الدرن المسمى جبل أطلس) ، والجملة الأصلية تنفى (توجيه النظر) — على حد قوله — عن منابع النيل ، والنيجر ، وجبل أطلس جميعاً .

وقد ترجم رفاعة هذا الجزء حوالى سنة ١٢٥٠ أى بعد عودته من فرنسا بنحو ثلاث سنوات ، ومع هذا لم يخلص تماما مما آخذه به ممتحنوه من أنه (ربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة) ، فهو فى هذه القطعة قد ترجم) : par fragments. إلى (مقطعة قطعة بعد قطعة) وترجم une monarchie Grecque إلى (مملكة من ممالك اليونان) .

هذه أمثلة لما يمكن أن يوجه إلى هذه القطعة من نقد ، ونستطيع أن نوجهه إلى معظم ما ترجم رفاعة ، وهو يثبت إلى حد كبير أن ممتحنيه فى باريس كانوا على حق حينما أخذوا عليه أنه « قد لا يكون (فى بعض الأحيان) فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة . .) ولكنه كان دائماً — كما قال ممتحنوه أيضاً — محافظاً على روح المعنى الأصلى ؛ وهذا هو الفرق الواضح بينه وبين مترجم كرفاييل ، فان ترجمة رفاعة — رغم مابها من عيوب — يمكن أن تقرأ فتفهم ، وكان يمكن أن تخرج ترجمته أكثر دقة واتقانا لو أنها خضعت لمراجعة غيره ، ولكن رفاعة كان الوحيد من بين خريجى البعثات — كما كان رفاييل الوحيد من بين المترجمين السوريين — الذى لم تخضع ترجماته لهذه المراجعة ، ويمكن أن نلتمس العذر لرفاعة أيضاً عن الاخطاء الواردة فى هذا الجزء بالذات ، لأنه ترجمه فى مدة وجيزة — فى نحو سبعة أشهر — .

المثال الثالث :

قطعة من كتاب (اتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوروبا) ، وهو ترجمة خليفة محمود — أحد خريجى الالسن — للجزء الأول من كتاب المؤرخ الانجليزى ، Robertson وعنوانه : "History of the Reign of Charles the Fifth" وقد ترجمه خليفه افندى عن ترجمة فرنسية له ، غير أنى لم أعثر على هذه الترجمة ، وإنما عثرت على الأصل الانجليزى ، فلم أر بأسا من المقابلة بينه وبين الترجمة العربية فيما يلى .

الترجمة العربية	النص الانجليزى
القسم الأول « فى ذكر التقدم الذى حصل فى أوروبا بالنسبة إلى الحكومة الداخلية ، والقوانين والآداب » . أعلم أنه حصل تغيران عظيمان فى الحالة السياسية وأخلاق أهل الافرنجية ، أحدهما نشأ عن تقدم المملكة الرومانية فى القوة ، والآخر صدر عن خراب هذه المملكة أيضا ، وذلك أن التولع بالفتوحات لما وصل بالجيش الرومانى إلى خلف جبال « الب » ورأى سائر البلاد التى دخلها مسكونة بأمم خشنية بربرية ، وكان الرومانيون يسمونهم أبجاما ، لكنهم كانت مستقلة بنفسها ، فكانت لانراطها فى الشجاعة تحامى عن أرضها القديمة بقوة عجيبة ، ومقاومة غريبة ، لكن حسن تربية الرومانيين فى التعليم العسكرى كان هو السبب فى نصرتهم على هؤلاء الأمم ، لا كثرة شجاعتهم ، ومع ذلك لم تكن هؤلاء الأمم مثل سكان آسيا الذين هم كالنساء فى الارتخاء وفتور الهمة ، بحيث أنهم بمجرد غلبتهم فى واقعة واحدة سلموا أنفسهم ودولتهم لأعدائهم ، بل كانوا يأخذون السلاح بهمة وشجاعة خالية عن التعليم العسكرى ، ولكن لما كانوا أرباب همة عالية حاملة لهم على حب الحرية ، والتولع بالاستقلال قامت تلك الهمة عندهم مقام الفنون الحربية ، والتدبيرات العسكرية ، وفى مدة هذه الحروب الطويلة التى سفكت فيها دماء الأمم كان أحد الجانبين يحارب لأجل الدولة ، والجانب الآخر لأجل الحرية ، وكانت ولايات أوروبا العظيمة قد تهدمت على التعاقب ، وهلك من الأهالى قسم عظيم فى ميدان الحرب ، وقسم عظيم أيضا وقع أسيرا فى أيدى الرومانيين ، ولما لم يمكن لمن بقى منهم أن يقاوم العدو دخل تحت طاعة الدولة الرومانية.	" View of the progress of society in Europe with respect to interior government. laws and manners." Two great revolutions have happened in the political state, and in the manners of the European nations. The first was occasioned by the progress of the Roman power: the second by the subersion of it. When the spirit of conquest led the armies of Rome beyond the Alps, they found all the countries which they invaded inhabited by people whom they denominated barbarians, but who were nevertheless, brave and independent. These defended their ancient possessions with obstinate valour. It was by the superiority of their discipline, rather than that of their courage, that the Romans gained any advantage over them. A single battle did not as among the effeminate inhabitants of Asia, decide the fate of a state. The vanquished people resumed their arms with fresh spirit and undisciplined valour, animated by the love of liberty, supplied the want of conduct as well as of union. During those long and fierce struggles for dominion or independence. the countries of Europe were successively laid waste, a great part of their inhabitants perished in the field, many were carried into slavery, and a feeble remmant, incapable of farther resistance, submitted to the Roman power.

قد نتهم فى نقدنا لهذا المثال ، لأننا لا نقارن الترجمة فيه بالأصل الفرنسى الذى نقل عنه المترجم . وإنما نقارنها بالأصل الانجليزى ، ولكننا نرى أن مقارنة من هذا النوع لها قيمتها ، فهى تبين إلى أى حد تأثر المعنى بعد نقله أكثر من مرة .

وهذه القطعة تمثل الخطوة الأخيرة من خطوات التطور الذى خضعت له الترجمة فى عصر محمد على ، وهى تختلف عن القطعتين السابقتين ، فى أنها خضعت للمراجعة ، فقد ذكر المترجم فى مقدمته أنه كان يرجع دائماً إلى أستاذه رفاعة الذى « صححها على أصلها وقابلها كل المقابلة » ، ومع هذا فإنا نلاحظ أن المترجم كان — ككل مترجمى العصر — أسيراً للنص الذى ينقل عنه ، كما أنه كان — كأستاذه رفاعة —

متأثراً بالألفاظ والأساليب المتواترة فى الكتب العربية المتداولة فى ذلك العصر ، فهو يبدأ ، بقوله : « اعلم أنه » ، تماماً كما فعل رفاعة ، أو كما كان يفعل المقريزى أو ابن خلدون ؛ وهو يستعمل أمثال هذه الألفاظ : التولع ، والملل (ترجمة للفظ nations) والشوكة ، وتحامى عن ، ونصرة ، وأرباب همة عالية . . الخ وهى ألفاظ استعملها الجبرتى ومعاصروه من الكتاب .

كذلك لم يكن خليفة محمود دقيقاً فى تخير المعانى التى تؤديها الألفاظ الأجنبية ، فهو قد ترجم لفظ (revolution) إلى « تغير » مع أن اللفظ الأجنبى يفيد معنى أقوى من معنى التغير ، وترجم (the spirit of conquest) إلى (التولع بالفتوحات) وهو معنى يخالف بعض الشىء المعنى الذى يريده المؤلف .

وكان خليفة محمود يترجم اللفظ الواحد أحياناً بجملة كاملة ، ولا عجب فهو تلميذ رفاعة وقد كان يقوم بالترجمة تحت إشرافه ، فهو قد ترجم لفظ (barbarians) إلى (خشنية متبربرة وكان الرومانيون يسمونهم أعجاماً) ، ونقل : the superiority of their discipline إلى (حسن تربية الرومانيين فى التعليم العسكرى) وترجم the effeminate inhabitants of Asia إلى (سكان آسيا الذين كالنساء فى الارتخاء وفتور الهمة) الخ . . الخ . .

٦ — تأثير الترجمة فى اللغة العربية :

اضمحل شأن اللغة العربية فى العصر العثمانى المملوكى . ولم يعد يهتم بها إلى نفر قليل من علماء الأزهر ، وحتى هؤلاء العلماء كانوا قد عنوا بالقشور دون اللباب ، فعقدت كتبهم التى يقرأون شروحا ، أو هوامش أو تعليقات . أما المتون والأصول فقد خلفوها وراء ظهورهم ، وأما أسلوب الشروح والهوامش والتعليقات وما ألف عامة من كتب ورسائل فى هذا العصر فقد ضعف وانحط انحطاطا بالغا ، لما دخل فيه من ألفاظ عامية ، وما أصابه من ركاكة فى التعبير .

وفى هذا العصر أيضا انتشرت اللغة التركية فى مصر ، وفى تاريخ الجبرتى شواهد كثيرة تشير إلى معرفة الكثيرين من المصريين بهذه اللغة ، وانتشرت فى دواوين الحكومة ، وأصبح لها من الأهمية أضعاف ما كان لها فى العصر العثمانى ذاته ، وهذه حقيقة يخطىء فى تصويرها بعض المؤرخين والكتاب ، فهم يفترضون أن اللغة التركية كانت ذات دولة وشأن كبير فى العهد السابق لمحمد على لأنه كان عهداً عثمانياً ، ولأن مصر كانت فى أثنائه ولاية عثمانية ، ولكن البحث الصحيح يثبت لنا أن اللغة التركية انتشرت فى عصر محمد على انتشارا لم تعرفه فى العصر العثمانى ، وتفسير هذا واضح فيما نرى ، فإن الحكم فى مصر فى العصر العثمانى لم يكن وقفاً على العثمانيين ، بل كان يشارك فيه المماليك ، وهؤلاء وأولئك كانت تعنيهم أمور البلد الحربية والمالية ، أما الدواوين الحكومية فقد كانت تتولاها طوائف من الكتاب المصريين ، وكان كل ما فيها يكتب ويسجل باللغة العربية ، أما فى عصر محمد على فقد أصبح الوالى هو المسيطر على كل شؤون الدولة ، وهو وحده الذى يصدر الأوامر ، وهو يريد دائما أن يطلع على كل صغيرة وكبيرة ، ولغة هذا

الوالى الأصلية التى يفهمها هى اللغة التركية ، فلا عجب إذن أن انتشرت هذه اللغة فى عهده وأصبحت اللغة الأولى ، يتقنها ويكتب بها رجال الحكومة والجيش ، والصفوة من المصريين .

وفى عصر محمد على أيضا اعتنى بعض العناية باللغة الشرقية الثالثة — اللغة الفارسية — فكان يعرفها ويستعملها بعض المصريين والأتراك ولكنها كانت محدودة الاستعمال جدا إذا قورنت باللغتين العربية والتركية ، وسيزيد انتشارها كلما تقدمت السنون فى عصر محمد على ، فقد فرض تعليمها على تلاميذ معظم المدارس الجديدة .

هذه هى اللغات الثلاث كما كانت تسمى فى ذلك العصر ، أما اللغة الفارسية فلم يكن هناك ما يبرر انتشارها الواسع ، ويمهد لغلبتها . فظلت لغة العلية من المثقفين يتعلمونها ليشبعوا شغفهم وروحهم الأدبى فحسب . وأما اللغة التركية فقد زاحمت العربية فأصبحت لغة الصفوة كما ذكرنا ، وترجمت إليها معظم الكتب التى ترجمت فى عشر السنين الأولى من تاريخ الحركة ، (١٨٢٢ — ١٨٣٢)، وذلك لأنها كانت كتبا حربية ، غير أن اللغة التى استطاعت أن تخفى لغة الشعب المصرى بأسره بعد الفتح العربى بنحو قرنين من الزمان ، وتصبح هى اللغة الأصلية ، والتى استطاعت أن تتغلب على اللغة التركية قرونا ثلاثة سابقة ، لم يكن ليعجزها رغم ضعفها أن تنتصر هذه المرة أيضا . يقول الأستاذ شفيق غربال بك : (وانتشرت التركية فى مصر انتشارا جديدا تبعاً لأنها لغة ولى الأمر ، ولغة الحكومة ، ولغة (الصفوة) من القوم ، إلا أن تأثير ذلك فى الثقافة المصرية كان ضئيلا ، فلم تتأثر العربية بالنماذج التركية تأثيرا يعتد به ، اللهم إلا فى الرسائل ، واستمر الكتاب على اتصالهم القديم بالنماذج العربية الأصيلة ، ولما ابتدأوا التطلع إلى غيرها من المناهل اتجه نظرهم إلى باريس لا إلى القسطنطية)[1] .

أجل اتجه المصريون بنظرهم إلى باريس ، والذى وجههم هو محمد على .

وقد بدأت اللغة التركية بدءاً طيبا لأن التنظيمات العسكرية احتفظ فيها بشىء من الروح والتعليمات ، والنداءات ، والرتب العثمانية ، ولهذا ترجمت الكتب الحربية الأولى إلى اللغة التركية ، فلما افتتح محمد على المدارس الأخرى كالطب والهندسة والزراعة والألسن الخ . وكان جل تلاميذها إن لم يكن كلهم من المصريين ولغة هؤلاء المصريين هى اللغة العربية ، ومن هنا بدأت اللغة العربية نهضتها الجديدة .

حقيقة أن العصر العثمانى فى مصر كان يشعر فى نهايته بنهضة جديدة لهذه اللغة ، فى هذه النهاية وضع السيد مرتضى الزبيدى قاموسه « تاج العروس » فى مصر ، وفى هذه النهاية عنى بعض شيوخ الأزهر بالأدب — نثره وشعره — كالشيخ الشبراوى والشيخ اسماعيل الخشاب . وفى شعرهما رقة وحلاوة جديدتان لم يعرفهما شعر العصر العثمانى ، وفيها أيضا ظهر عالم كالشيخ العطار ، ومؤرخ كالجبرتى يعنيان بغير ما كان يعنى به علماء عصرهما .

---

(١) شفيق غربال ، محمد على الكبير ، ص ٧٩ .

غير أن هذه جهود فردية لم تكن لتستطيع النهضة باللغة العربية كما نهضت بها حركة الترجمة ، شملت فنوناً وعلوما كثيرة مختلفة ، والتى زودت المكتبة العربية بعشرات الكتب الجديدة ، ونقلت اليها ألوف المصطلحات والألفاظ التى لم تكن تعرفها .

وهناك أمر آخر له أهميته ، ذلك أن حركة الترجمة تبعتها عناية كبيرة بالقواميس فى مختلف اللغات الشرقية والغربية ، فترجمت إلى اللغة العربية قواميس إيطالية وفرنسية وفارسية وتركية ، وهذه محاولة قيمة جدا لها أهميتها وخطرها فى تعريب العلوم الأوربية الحديثة وتسهيل الصعاب أمام القائمين بالترجمة ، وتزويد اللغة بثروة عظيمة من الألفاظ والمصطلحات .

وحركة القواميس الأجنبية استدعت العناية بالقواميس العربية القديمة ، ففى عصر محمد على بدأ التفكير فى طبع القاموس المحيط ، وفى سبيل طبعه روجع مراجعة دقيقة على نسخ مخطوطة كثيرة . وعلى النسخة التى طبعت قبل هذا العصر فى كلكتا ، وفى هذا العصر أيضا ، وفى القاهرة ، ترجم مستر « لين » هذا القاموس إلى اللغة الانجليزية ، ولكنه فى سبيل أن تخرج ترجمته صحيحة مضبوطة اضطر إلى مراجعة كثير من القواميس والمعاجم العربية القديمة كالجهرة لابن دريد . والتهذيب للأزهرى ، والصحاح للجوهرى والمحكم لابن سيده ، والأساس للزمخشرى ، ولسان العرب لابن منظور . وتهذيب التهذيب للتنوخى ، والمصباح للفيومى ، وتاج العروس للزبيدى الخ . . الخ [١]

فالترجمة اذن أفادت اللغة العربية فائدتين — مباشرة وغير مباشرة — أما الفائدة المباشرة فكانت بنقل الكتب الكثيرة فى العلم والفنون المختلفة اليها ، وأما الفائدة غير المباشرة فكانت بالعناية بالقواميس الأجنبية والعربية جميعا ، وضاعف من هاتين الفائدتين وجود المطبعة ، فإن طبع آلاف النسخ من هذه الكتب والقواميس ساعد على انتشارها وتداولها بين أكبر عدد ممكن من القراء ، وبهذا بدأت اللغة العربية أولى خطواتها فى سبيل النهضة الجديدة . فأخذ الأسلوب ينطلق شيئا فشيئا من قيوده البديعية القديمة ، ويصطنع لنفسه طرقا جديدة يعنى فيها بالمعنى دون اللفظ ، وبالجوهر دون العرض ، ومنذ ذلك العصر خطا المصريون خطواتهم الموفقة فى سبيل النهضة باللغة العربية خطوة بعد خطوة إلى أن وصلوا إلى الأوج فى عصرنا هذا ، ولولا ذلك البدء ما كانت هذه النهاية .

٧ — تأثير الترجمة فى المجتمع المصرى :

ذكرنا فى أول هذا الباب أغراض الترجمة فى هذا العصر ، وعرفنا أن هذه الأغراض كان تزويد المدارس والتلاميذ والمدرسين بالكتب فى مختلف العلوم والفنون الجديدة التى يراد نقلها عن أوربا ، ولهذا ترجمت الكتب الكثيرة فى الطب والهندسة ، والكيمياء والطبيعة ، والرياضيات ، والجغرافيا والتاريخ والعلوم والفنون الحربية ، وقد كان تقليد العصر أن يطبع من كل كتاب ألف نسخة ، كان العدد الأكبر

(١) أنظر مقدمة قاموس المستر « لين » Lane's Arabic— English Lexicon.

منها يوزع على تلاميذ المدارس . فالترجمة فى معظمها كانت تتجه اتجاهاً علمياً ، وكانت دائرتها محـــدودة لاتتعدى جدران المدارس . حقيقة كانت هناك دائرة علمية أخرى هى دائرة الأزهر بعلمائه وطلابه ، ولكن استفادة هؤلاء بالكتب الجديدة كانت محدودة ، فلم يقبل منهم على قراءتها إلا نفر قليلون ، وخاصة طائفة المصححين والمحررين الذين شاركوا مشاركة فعلية فى نقل هذه الكتب ، وعدد آخر قليلون من أمثال الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ، يقول عنه تلميذه رفاعة إنه « كان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية . . »[1] .

أما الغالبية العظمى من شيوخ الأزهر وطلابه فقد وقفوا من هذه الحركة موقفاً سلبياً ، بل لانغالى إن قلنا أنهم وقفوا منها موقفاً عدائياً فى بعض الأحيان ، فكانوا يسخرون من المعربين الذين تعلموا فى أوربا وقولون أنهم تعلموا تعليما سطحياً ، «وهم كالطائر الذى يحجل ويتهادى فى مشيته ، دون أن يحسن الطيور»[2] ولم يكن الدافع لهم على أن يقفوا هذا الموقف الدين الإسلامى ، أو شيئاً من تعاليمه كما فهم بعض الكتاب الأوروبيين ، بل كان الدافع الحقيقى — فيما نرى — نوعاً من الضيق فى التفكير أنتجه جهل القرون السالفة ، وعشق غريب للمحافظة على القديم ، واعتداد أغرب بما درسوا من كتب ، وما كان أقلها ، وأما كان تفهها ؟ ؟

والآن لنستمع إلى ماوصف به مستشرق فرنسى عاش فى مصر فى عصر محمد على موقف هذه الغالبية من شيوخ الأزهر من الكتب المترجمة فى المدارس الجديدة ، هذا المستشرق هو الدكتور «برون» ، كتب إلى صديقه « جول مول » سكرتير الجمعية الآسيوية خطاباً عن مدارس محمد على ومطبعته قال فيه : « وهل تعتقد ياصديقى أنهم (أى شيوخ الأزهر) يقرأون كتبنا (أى الكتب المترجمة) ؟ لا — فإنهم يتحاشونها ، ولكن من السهل أن يتم الانسان قبل أن يستمع ، وكتبنا هذه مثلها كمثل التوراة والإنجيل ، فالشيوخ يتحدثون دائماً عنها ، وليس بينهم من قرأ منها سطراً واحداً » .

ثم روى « برون » أنه كان مرة فى ضيافة الشيخ الجوهرى ، وفى صحبته صديقه وأستاذه الشيخ محمد عمر التونسى ، وكانت المائدة تضم عدداً آخرين من شيوخ الأزهر ، وفى هذا الاجتماع دارت بين « برون » والشيوخ مناقشة طريفة حول رأيهم فى الكتب المترجمة ننقلها كما رواها « برون » نفسه ، قال : «وبعد تناول العشاء ، وبين القهوة والشبك ، تحدثنا عن الدراسة والمدارس ، فقال شيخي التونسى بعض كلمات عن الكتب التى يراجعها فى مدرسة الطب ، فسألنى شيخ من الحاضرين عن ماهية الكيمياء الحالية فى أوربا ، لأنهم هنا لايفهمون من لفظة « كيمياء » إلا فن تحويل المعادن إلى ذهب . . . وقد حدثتهم عن الكيمياء حديثاً مختصراً ، فانبرى واحد من الشيوخ وقال : وما فائدة هذه العلوم الدنيوية ، لتخش الله ، هذا كل مايجب على الانسان . وكأن هذا الشيخ كان يريد بهذه الكلمات أن يزيد فى قيمة ورعه ، ويبرز شخصيته التقية الدينية ، فاتخذت لهجة الجد ، وقلت له وماذا تعنى بهذه الكلمات البعيدة عن الدين ؟ ولم تهين هؤلاء العلماء الحاضرين بيننا ، وكل العلماء الذين يعتز بهم الإسلام منذ ظهر فى العالم ؟ إنك ترى أن دراسة العلوم غير الدينية جهد لاطائل تحته .

---

(١) رفاعة ، مناهج الألباب ، ص ٣٧٦ .

(٢) Eno. Isl. Art. Azhar.

وإذن فدراسة الشعراء العرب القدامى وأخبار الجاهلية أمر لا فائدة فيه . بل هي دراسة خطرة . أقدم لك ثناءً خالصاً لأنك تجيد مدح الجهل ، وأنت أيضاً — فوق ماتظن — تلميذ من تلاميذ الجاهلية قل لي ، أتعرف ما هو الله ؟ أليس الله سبحانه هو المعرفة كل المعرفة ؟ وهل تتكرم فتقول لي أيضاً ، أيهما أقرب للذات الإلهية ، الجاهل أم العالم ؟ فأجاب الشيخ : « ولكن دراسة العلوم الإنسانية تقود إلى الإثم » فقال « برون » : « إن دراسة العلوم الإنسانية تؤدي بالانسان المفكر إلى الاعجاب بأفعال الخالق ، وإلى إكبار عجائب العالم والعقل الانساني ، ترى هل أضاع علماء الاسلام وقتهم ، وارتكبوا إثماً عند ماتوفروا على دراسة الشعراء الجاهليين لكي يصلوا إلى تفسير القرآن ؟ إنهم إن ظلوا مثلك ، وحكموا حكمك ، فمن منكم كان يستطيع فهم القرآن اليوم ؟ . . . وذلك العالم الذي كان يحمل اسماً شبيهاً لاسم ضيفنا المبجل ، والذي قضى — على الأقل — عشر سنوات من حياته متنقلا بين القبائل العربية في الصحراء لجمع مفردات اللغة العربية ، وفي إنشاء قاموسه « الصحاح » . هذا الجوهري ، هل كان مجنوناً ، أو كان غير مسلم ، أو غير مؤمن ؟ ثم ختم « برون » حديثه بجملة خطابية فقال : « سادتي . إني أنصحكم أن تقلدوا هذا الشيخ في خوفكم وخشيتكم من الله ، وعند ذلك يمكنكم أن تتأكدوا أن انحلال الاسلام سيخطو خطوات سريعة ، إن مدح الجهالة هو أخطر علامة على التأخر الاجتماعي [1] » .

وأخيراً ذكر (برون) ، أن مضيفه الشيخ الجوهري أبدى سروره بهذا الحديث فكان يرمق مناظره في ابتسام ، دون أن يقول كلمة واحدة ، أما هذا المناظر فلم يعقب على حديث (برون) بكلمة واحدة ، بل انتقل إلى آخر المجلس ، ثم انسحب دون أن يشعر أحد بانسحابه .

قد يكون (برون) مبالغاً في وصف ما حدث وقد يكون في حديثه غلو في اتهام الشيوخ وفي اعتداده بنفسه وبعلمه ، بل إننا نتهمه بهذه المبالغة وهذه المغالاة فقد كتب في خطاب آخر لصديقه يحدثه عن تفكيره في طبع القاموس المحيط في مطبعة بولاق ، وهنا انتهز الفرصة أيضاً فبالغ في وصف شيوخ الأزهر بالجهل الشديد : (فقال وليس هناك في القاهرة ولا في مصر كلها عشرة علماء يقتنون هذا القاموس بل ليس هناك عشرة علماء يعرفون كيف يستعمل القاموس) ثم ختم خطابه بجملة فيها تهكم مرير ، فقال فلنعط إذن قاموساً للعلماء : Donnons donc un dictionnaire aux Ulémas. .

وهذه مبالغة من (برون) ، ينكرها الواقع نفسه ، فهو عندما وفد على مصر تتلمذ على شيخين جليلين من شيوخ الأزهر ، هما الشيخ محمد عياد الطنطاوي ، والشيخ محمد عمر التونسي ، وبفضلهما تقدمت معرفته في اللغة العربية ، وعندما فكر في طبع القاموس كان كل اعتماده في المراجعة على الشيخ التونسي ، وعندما فكر المستشرق الانجليزي (لين) في ترجمة القاموس للانجليزية ، لم يجد من يعينه على فهمه ومراجعته على القواميس والمعاجم الأخرى غير شيخ من شيوخ الأزهر ، هو الشيخ إبراهيم الدسوقي ، وهذا هو الشيخ

---

(١) تقلنا هذا الحديث في إيجاز وتلخيص من :

Perron, Lettre sur les écoles et l'imprimerie du Pacha d'Egypte, Journal Asiatique, 1843, pp. 9 — 12.

Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron, 29, 90 — 92, etc (١)

العطار وتلاميذه كانوا من المعجبين بالحركة ، القارئين لكتبها ، بل لقد كان أنبغ من ظهر من تلاميذ المدارس والبعثات هم من أخذوا من تلاميذ الأزهر وشيوخه . وطائفة المحررين والمصححين للكتب المترجمة كانت كلها من شيوخ الأزهر . ولم يكن انحراف المشايخ عن المدارس الحديثة تاما كما وصفه (برون) ، بل لقد ابتعد بعض الشيوخ بأولادهم عن الأزهر ، وأدخلوهم المدارس ، فادخل الشيخ سالم عوض القنياتى ابنه سالم سالم (الدكتور سالم باشا سالم فيما بعد) مدرسة الطب ، وصحب الشيخ نصر الهوريني ابنه سعيدا (الدكتور سعيد باشا نصر فيما بعد) معه فى بعثة سنة ١٨٤٤ إلى فرنسا .

هذه أمثلة مختلفة لاتنفى اتهام « برون » ، ولكنها تخفف من حدته ، ونستطيع أن نستخلص مما سبق أن الدائرة العلمية القديمة ، ونعنى بها الأزهر وشيوخه ، لم تقبل على الكتب المترجمة الاقبال الكافى ، بل لقد أقبلت فئة قليلة من الشيوخ على قراءة بعض هذه الكتب وتفهمها ، وأعرضت الفئة الكثيرة عنها إما حذرا ، وإما كرها — شأن الانسان فى كل مجتمع ، ونظرته إلى كل جديد واعتداده بكل قديم — بل لعلنا نستطيع أن نلتمس لهؤلاء المعرضين العذر من أن العدد الأكبر من الكتب المترجمة كان كتباً علمية بحتة ، تبحث فى التشريح ، أو الأمراض وعلاجها ، أو الهندسة الوصفية ، أو الكيمياء الحديثة .. الخ وفهم هذه العلوم كان يحتاج إلى أسس من المبادىء الأولية لم تتح الفرصة لشيوخ الأزهر لتلقيها .

وهنا قد يدفعنا البحث إلى التساؤل ، هل كان محمد على محقا عندما ترك معاهد العلم القديمة كما هى ، وأنشأ إلى جانبها المدارس الحديثة انشاء جديداً ؟ وإذا كان محقا فى تصرفه هذا ، فهل كان محقاً أيضاً عندما ترك التعليم القديم على قدمه ، أم كان من الأفضل أن يحاول تطعيمه بشىء من البرامج والدراسات الجديدة حتى تستطيع هذه المعاهد القديمة أن تقترب — مع مضى الزمن — شيئا فشيئا من المعاهد الجديدة ، وحتى يأتى يوم يتقابل فيه القديم والحديث ؟

وأخيراً هل كان ينجح محمد على لو حاول واحدة من هاتين المحاولتين ؟

هذه ألوان من الأسئلة يثيرها البحث ، ولكننا نجد الاجابة عليها عسيرة ، لأن هذه الاجابة تتطلب البحث فيما يجب أن يكون ، لا فى ما كان .

وغاية ما نستطيع أن نقرره ، أن هذا الجمود من شيوخ الأزهر وقف بهم وبمعهدهم عن السير مع القافلة ، فتركزت العناية بالعلوم الحديثة ، وبالكتب المترجمة فى المدارس الجديدة ، وتلاميذها ومدرسيها وخريجيها ، وبدأو بهذا يحتلون مقام الزعامة الفكرية فى مصر ، يقول الدكتور (برون) ، والآن تنبثق من بين تلاميذنا قوة علمية ، هذه القوة لو استمرت نحيا بعض الوقت ، فإنها تستطيع أن تتغلب على معتقدات العلماء العلمية وأن تقضى على طريقتهم المدرسية العتيقة ، وتلاميذنا الآن — نتيجة للثقة التى أكسبتهم إياها دراساتهم التجريبية فى العلوم الصحيحة — يحاربون الكتب القديمة ، وآراء العلماء البالية ، الذين يعتقدون — فى قرارة أنفسهم — إن الرأى القاطع فى العلوم ، هو ما ورد فى كتبهم العربية»[1] .

(1) Dr. Perron. Lettre sur les écoles et l'imdrimerie du Pacha .... etc. j.a. 1843. q P.

وأنظر أيضا تعليقات نفس الكاتب على:
Voyage au Darfour. Tradict. Française. PP. 448—9.

مهدت إذن المدارس الجديدة — وحركة الترجمة بوجه خاص — السبيل «للافندية» كى يخلفوا «المشايخ» فى الزعامة الفكرية فى مصر ، فماذا فعل «الأفندية» لنشر الثقافة بين الشعب ؟

عاشت حركة الترجمة فى عصر محمد على نحو العشرين عاماً ، كان الجهد فى خلالها متجهاً كله إلى الترجمة فقط ولم يجد تلاميذ المدارس ومدرسوها ، وخريجوها الفراغ الكافى ليستجيبوا للثقافات التى تلقوها ، فيؤلفون، كذلك كانت ترجمتهم تصطبغ بالصبغة الرسمية . فهم — إن صح التعبير — كانوا مترجمين محترفين لا هاوين ، يترجمون ما يؤمرون بترجمته ، لا ما يريدون ترجمته ، وما يؤمرون بترجمته كان علما خالصا ، لا يستطيع القراء العاديون — على ندرتهم — أن يقرأوه ، أو يتذوقوه ، وهم إن فكروا فى قراءته لا يستطيعون فهمه.

كان الواجب إذن أن يؤلف «الأفندية» للشعب ، أو يترجموا له ، ولكنهم لم يفعلوا للأسباب السابق ذكرها ، ولهذا كان تأثير الترجمة — فى عصر محمد على — فى المجتمع المصرى ضئيلا جداً إن لم يكن منعدما حقيقة لقد خطا محمد على خطوة واحدة فى هذا السبيل عند ما أشار بتأليف وترجمة كتابى « كنوز الصحة ويواقيت المنحة » و « الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال » لتثقيف الشعب ثقافة طبية ، وقد رأينا كيف أقبل المصريون على قراءة هذين الكتابين حتى أعيد طبعهما مرات، ولكنه لم يتبع هذه المحاولة بمحاولة أخرى . وعند ما أنشئت مدرسة الألسن، كانت كتبها التى ترجمت فى العلوم الاجتماعية المختلفة من تاريخ ورحلات، وجغرافيا وأدب أقرب إلى ذهن القارىء العادى وفهمه ، وكان من الممكن أن تؤثر هذه المدرسة وخريجوها التأثير الطيب فى ثقافة الشعب المصرى لو امتد بها العمر ، ولكنها ألغيت بعيد موت محمد على ، وتشتت خريجوها موظفين فى المصالح والدواوين المختلفة ، وكانت نكسة شملت عصرى عباس وسعيد ، ولكن الأثر الأول للمدرسة لم يخمد ، ولم يمت ، بل كان مستقرا مستجنا فى نفوس تلاميذها ، فلما استونفت النهضة فى عهد اسماعيل كان هؤلاء التلاميذ هم عدتها وعمدها ، فانطلقوا يترجمون من جديد، بل لقد خطوا الخطوة الثانية الطبيعية ، فانطلقوا يؤلفون ، وعاد إليهم أستاذهم رفاعة فانضووا تحت لوائه يعملون ويعملون من جديد ، فترجموا معاً « قانون نابليون » ، وترجم وألف أبو السعود ، وخليفة محمود ، وصالح مجدى فى التاريخ والجغرافيا ، وترجم عثمان جلال فى الأدب ، وألف قدرى باشا كتبه الخالدة فى القانون ؛ وأنشأ أبو السعود أول صحيفة مصرية أهلية ، وهى « وادى النيل »

وفى عهد اسماعيل أيضا وضع رفاعة كل مؤلفاته ، « كمناهج الألباب العصرية فى مباهج الآداب المصرية » و « المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين » و « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » و « التحفة المكتبة لتقريب اللغة العربية» الخ . . الخ . .

التاريخ ، الأدب ، القانون ، الصحافة ، هذه هى الطرق التى يستطيع قادة الفكر دائما أن ينفذوا من خلالها إلى نفوس الشعب وعقوله ، فينشرون فيها الثقافة العامة ، ويخلقون فيها الروح القوية ، وقد قام بهذا الواجب تلاميذ الألسن القدماء ولكن فى عصر اسماعيل — لا فى عصر محمد على — ؛ فهذا الأثر فى الواقع — وإن تأخر به الزمن — هو أثر الترجمة فى عصر محمد على ، بل لعله أقوى آثارها .